المؤتمر العلمي الدولي السنوي الثاني عشر

ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

The illiteracy of Arabs is a contextual reading

D. Shaimaa Khairy Fahem

Mohammed Hatif Jaaz

University Qadisiyah Faculty of Education

Email: Shyamalan.fahim@qu.ed.iq

Keywords:

contextual approaches psychological obsessions ,psychological impact, knots , social impulses, rebellion , freedom.

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 15.May.2022

Accepted 17.Aout.2022

Published 30.Nov.2022

A B S T R A C T

Some modern day scholars have provided readings of the Arab illiteracy of Shanfari that discussed the human values inherent in its interior presented to the modern recipient as human values whose voice is exalted in the Arab desert, seeking justice and freedom and rejecting class and injustice, and with it we can notice that we stand on the beginnings of the formation of a new horizon since the readings that began to appear in the beginning of the sixties onwards, as we can demonstrate this by mentioning many studies that began at that time, Where the debate began on psychological obsessions, social and ideological motives and their impact on the creativity of lamia, and its reclassification as a unique human experience, Elijah al-Hawi wrote his pioneering study on some Arab poets who are linked by experiences of cruel suffering, foremost among them Shanfari and his lamite, and then followed by studies that were an expression of a strong sense of the need to reveal in one way or another the subtleties of lamia, Yusuf al-Yusuf published Essays in Jahili Poetry, and then Adonis published his book The Words of the Beginnings, and other readings that were based on a strong desire to reveal and reveal the reservoirs of laminity, by re-reading them from the perspective of.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol49.Iss3.3369

لامية العرب في القراءات السياقية.

الباحث: محمد هاتف جعاز   أ.د. شيماء خيري فاهم

جامعة القادسية / كلية التربية

ملخص البحث:

قدم بعض الدارسين في العصر الحديث قراءات للامية العرب للشنفرى ناقشت قيماً إنسانية كامنة في باطنها قُدمت للمتلقي العصري كقيم إنسانية تعالى صوتها في صحراء العرب, تنشد العدالة والحرية وتنبذ الطبقية والظلم, ومعها يمكننا ملاحظة أننا نقف على بدايات تشكيل أفق جديد وذلك منذ القراءات التي بدأت في الظهور في بداية الستينات فصاعداً, كما يمكننا أن ندلل على ذلك بذكر العديد من الدراسات التي بدأت في ذلك الوقت, حيث أبتدأ النقاش حول الهواجس النفسية,

والبواعث الاجتماعية والايديولوجية وتأثيرها في إبداع اللامية, وإعادة تصنيفها بكونها تجربة إنسانية فريدة من نوعها, فكتب إيليًا الحاوي دراسته الرائدة عن بعض الشعراء العرب الذين تربطهم تجارب المعاناة القاسية وفي مقدمتهم الشنفرى ولاميته, ثمَّ بعد ذلك توالت الدراسات التي كانت تعبير عن شعور قوي بضرورة الكشف بشكل أو بأخر عن خفايا اللامية, فنشر يوسف اليوسف (مقالات في الشعر الجاهلي), ومن ثمّ أصدر أدونيس كتابه (كلام البدايات), وغير ذلك من القراءات التي كانت تنطلق من رغبة قوية في الكشف عن مكامن اللامية والإفصاح عنها, وذلك عن طريق إعادة قراءتها من منظور جديد, وغايات مختلفة, وآفاق مغايرة, وسياقات محددة.

الكلمات المفتاحية: مقاربات سياقية , هواجس نفسية , أثر نفسي , عقدة , بواعث اجتماعية , تمرد , حرية.

المقدمة :

إن المتلقي الذي ينتج عالمه الإبداعي عن طريق كشفه لأغوار النص به حاجة إلى أن يحقق إجزاء من ذاته بين تلك السطور داخل اللامية؛ لذا يحاول المتلقي الإحاطة بشظايا الذات المتناثرة كون اللامية صورة لشخصية صاحبها, بل مرآة تتراءى فيها شخصية قارئها بما فيها من هواجس نفسية ونزعات وتأملات ..... وبواعث اجتماعية إلخ....., فالقارئ حين يتفحص نصاً ما مثل اللامية يتلمس فيه روح الشاعر, ذات القارئ نفسه وعينه, أي في حقيقته وماهيته أو سماته وسمات المجتمع الذي يعيش فيه المبدع, فيتأمل في غور المعنى؛ ليكشف عن خيوط ترشده لفهم النص, ودلالاته النفسية والاجتماعية, ولبيان تلك القراءات النفسية والاجتماعية نستعرض تلك القراءات والمقاربات التي قام بها هؤلاء القراء.

لامية العرب في القراءات السياقية.

تدرجت مقاربة اللامية سياقياً عن طريق دراسة نفسية الشنفرى, وكوامنه الداخلية, إلى جانب دراسة البيئة الاجتماعية التي شكّلت وجوده وانتمائه, وهذا التدرج أمر طبيعي تحتمه السياقات المنهجية عن طريق الإحاطة بنص اللامية بوصفها قابلة لأكثر من قراءة جديدة, وذلك عن طريق القراءة التأويلية التحليلية وتأكيدها على إعادة الأنا في الأنت , أي أن المعنى كامن في الذات التي تستنطق اللامية كنص وهذا ما ذهب إليه ياوس Jauss, أثناء انخراطه في تجربته للقراءة التأملية(ينظر: ياوس, 2020: 16), وفاءً منه " للمبدأ التأويلي الذي يُلحّ على ضرورة التمييز بين الأفق الحالي وأفق التجربة المنصرم "(ياوس, 2020: 18)؛ لأن القراءة ليست شيئاً آخر سوى إعادة تنشيط لفكر الماضي في ذهن المتلقي(ياوس, 2020: 18 – 19).

وقد أدت المقاربات السياقية أثراً كبيراً في تغيير آليات قراءة اللامية , لتتحول بفضلها اللامية من نصٍ أدبي يمثل حياة فئة من المجتمع العربي إلى عمل إبداعي يكشف لنا أبعاداً جديدة أسهمت في معرفة معالم المجتمع العربي الفردية والاجتماعية (ينظر: الحاوي, 1986: 15, أدونيس, 1989: 88), إذ في الوقت الذي كان اهتمام أصحاب التلقيات السابقة منصباً على هوس التأصيل وبيان المكانة الأدبية لنص اللامية, وأبعاد شبح استبعادها من الساحة الأدبية الجاهلية , نجد اصحاب التلقي الاستكشافي عن طريق سياقاتهم المنهجية – النفسية والاجتماعية , يلتفتون, أول ما يلتفتون, إلى العوامل النفسية والاجتماعية, " فالنص الإبداعي يحيل على نسق وسياق, بين النسق والسياق علاقة جدلية تفاعلية, النسق متصل بالتشكل عبر التراكم التاريخي لمنظومة الافكار والعلامات, والتشكل يحدث خلال سياقات والسياقات متصلة بأنساق قيمية وثقافية "(عبدي, 2000: 9), وهي تتطلب كفاءة المتلقي الذي يعيد تقويم الأشياء وترتيبها؛ لأجل بناء الفعل الجمالي للامية, فأصبحت اللامية عندهم قرينة هواجس ونزاعات نفسية وقيم اجتماعية وأخلاقية , هيأت لايليًا الحاوي ويوسف اليوسف وأدونيس أن يكشفوا بعض أسرار اللامية بفضل المنحى السياقي في قراءتهم اللامية , أن كان نفسياً أو اجتماعياً أو عن طريق البيئة

الثقافية للشنفرى(ينظر: خليل, 2000: 135), وعلى إثره تفرعت هذه القراءة إلى قراءتين, الأولى مثلها إيليًا الحاوي, ويوسف اليوسف, التي اهتمت بالمكامن النفسية للمبدع في لاميته, والثانية اهتمت بالأبعاد الاجتماعية لها التي يمثلها أدونيس.

أولا – القراءة النفسية:

لم يهمل الدارسون الجانب النفسي للخطاب الشعري الذي كشفت عنه اللامية , بوصفه حالة انفعالية صادقة تعبِّر عن المعاناة والهواجس النفسية للمبدع , فضلاً عن تأثيره المتميز في نفسية المتلقي وفكره؛ لأن الشعر, هو أثرٌ نفسيٌ عميق يفصح عن عذابات الروح للمبدع, وشعورٌ نفسيٌ يصيب المتلقي ويدعوه إلى المشاركة في أحاسيس وهواجس المبدع(ينظر : كوين, 1990: 17 – 18), فيكون هذا الشعور مدخلاً نفسياً للمتلقي؛ لمعرفة أحوال المبدع, فالقصيدة عامةً صورة للشاعر" ولما يختلج في أعماقه من هموم وخواطر ... وقد يكون الشعراء أكثر الأدباء حساسية, والنص الشعري على تنوعه يعكس الحال النفسية التي يمرّ بها صاحبها .... والتي تعمل القراءة النفسية للعمل الأدبي على الكشف عنها"(سقال, والقزي, 2013: 3), والحديث عن الأثر النفسي للإبداع الشعري من أهم الأمور التي يطلبها المتلقي ويسعى للوقوف عليها , بعدها أداة ضرورية لفهم الواقع وإدراك أبعاد الإنسان .

وقد كان للدارسين قراءات نفسية معمقة مع اللامية, ظهرت بوادرها مع ايليًا الحاوي الذي أتخذ اللامية ضمن مجموعة من المقاربات لنصوص شعرية جعل الرابط بينها البواعث النفسية للإبداع الشعري , حيث أوردها كاملة في الجزء الأول من كتابه (في النقد الأدبي),(ينظر: الحاوي, 1986: 355), فالمتتبع للتلقي النفسي للامية لا يجد ناقداً, أو دارساً قبله قد اهتم بهذا الجانب؛ إذ قام بدراستها وتحليلها تحليلاً نفسياً, كاشفاً للجمهور عمق التجربة النفسية للشنفرى في لاميته .

وعلى هذا, نستطيع أن نتحدث عن التلقي النفسي للامية بوصفه انقطاعاً شبه جذري عن التلقي السابق, بل مجمل التلقيات السابقة؛ إذ رأى أن الشنفرى بلغ بلاميته مستوى إنسانياً شارف الخلود والكمال(ينظر: الحاوي, 1986: 355), كما تمت بفضل هذا الانقطاع اكتشاف مفاهيم وأبعاد مذهلة للامية بعد سنين طويلة من الدراسات التأصيلية أو الاستبعادية, ويبدو هذا الانقطاع خيانة, غير أنها محمودة (ينظر : إسكاريب, 1999: 116), فبفضلها تم اكتشاف أبعاد ومضامين إنسانية كانت كامنة في اللامية, لم تكن مطروقة, ولا مقصودة من قبل.

قد يجد المتلقي في قراءة إيليًا الحاوي تقويلاً وحملاً لنص اللامية على أقوال ومحامل لم تكن حاضرة في ذهن الشنفرى, أو المتلقين الأوائل لنص اللامية, وقد يجد المتلقي خلطاً بين سياق الأدب القديم وسياق الأدب الغربي بحيث يكون الشنفرى عُطيل العرب(ينظر: شكسبير, 1991), أو أوديب التراث (ينظر: زيدان, 1979: 161, طرابيشي, 1987: 5 – 6), وقد يجد المتلقي تحليلات واسعة لخطاب اللامية, ولكن لا يستطيع أحد أن يتجاهل أثر هذه القراءة في تغيير ملامح اللامية التي رسختها تلقيات طويلة من القراءات التأصيلية والاستبعادية السابقة, ولم يكن بالإمكان الانقطاع عن تلك التلقيات إلا بمثل هذا الخلط بين السياقات, أو عن طريق تلك العلاقات النفسية التي تحيل القارئ إلى " سمات أو جوانب الموضوع القصدي التي لم يحددها النص, وتثير لدى المتلقي عمليات الإكمال وهي تتموقع بالضبط بين الخطاطات أو المنظورات النصية"(شرفي, 2007: 225).

لقد وضعتنا قراءة ايليًا الحاوي وجهاً لوجه مع أسئلة مهمة تتعلق بحدود التأويل والتفسير, ودور القارئ في التأويل ومشروعية القراءة؛ إذ هل اللامية صورة ناطقة عن مبدعها؟ أم صورة خيالية لا تمثل واقع الشنفرى النفسي؟ وهل كان سلوكه سلوكاً مقصوداً لذاته ؟ أم إنه يخفي غاية ما وراءه؟ وإذا كانت هناك غاية تخفى, فما هي؟, فالتأويل هو المصدر الوحيد لتعددية المعنى لأي نص أدبي , كون اللفظ لا يحيل مباشرة إلى مرجعه, والنص لا يؤدي معنى بعينه فهو" صرف النظر إلى معنى يحتمله أنه انتهاك للنص وخروج بالدلالة ؛ ولهذا يشكل استراتيجية لأهل الاختلاف والمغايرة, وبه يكون صرف

الابتداع والتجديد, أو الاستئناف وإعادة التأسيس, ومنه فمأزق التأويل أنه يوسع النص بصورة تجعل القارئ يقرأ فيه ما يريد "(مفتاح, 1994: 217), وعليه فالتأويل خيانة ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها.

وعامة يمكننا الإجابة مع ايليًا الحاوي عن هذه التساؤلات التي كشف عنها في معرض حديثه عن القيم الثورية والمبادئ الإنسانية الموجودة في خطاب اللامية الإنساني, والذي كان ترجمة لصرخات ومواقف إنسانية, قُدمت على شكل لائحة أدبية مقدمة من رجلٍ ليس بيده حيلة لتغير نفسه أو انقاذها؛ بسبب عنصرية المجتمع وتعاليه في ذلك الزمن(ينظر: الحاوي, 1986: 368), ولو قدَّر للشنفرى عدد من الاتباع كما يرى ايليًا الحاوي؛ لقام بثورة تشبه ثورة الزنج التي قامت في العصر العباسي (ينظر: السامر, 2000: 8 – 10), بما يعتمل في نفسه من حقد وشعور بالظلم أوصله لمرحلة الانقطاع وعدم الانتماء للمجتمع (ينظر: الحاوي, 1986: 368) .

أنطلق ايليًا الحاوي في قراءته للنص من نقطة محورية مفادها أن نقبل على قراءة اللامية "كوحدة حية, محاولين أن ننفذ إلى روحها , إلى قلب التجربة التي يعانيها الشاعر عبرها لنتحد ونتصهر بها متآلفين مع اجوائها, دون أن نقف في حدود اطارها الخارجي , نشاهدها مشاهدة, أو نتفرس بها تفرساً كالعالم الذي يشخص أمام الأشياء ؛ ليفهمها , لا ليتأثر بها "(الحاوي, 1986: 12), ويتماشى الدكتور حفني مع ايلياً الحاوي بوصف اللامية " بالمذكرات الشخصية التي يدون الشخص فيها أفكاره ومشاعره وما يحسه حوله في موقف من المواقف " (حفني, 1987: 181), وهذا ما أكدته فيما بعد الدكتورة أسماء شمس الدين " بقولها : " أن اللامية لا تفهم مجزوءة؛ لأن الشنفرى ينتمي إلى تأريخه الشخصي "(شمس الدين, 2009: 83), والقراءة بهذا المعنى, هي ما يمنح اللامية حداثتها وانتزاعها من ماضيها وزحزحتها عن حالة تغربها, ومن ثمَّ إدخالها إلى حاضرها المفسَّر, أي عندما تتحول إلى نشاط قابل للفهم بعد أن كانت غريبةً وأجنبيةً , ولا يتحقق هذا الفهم إلا عِبر امتزاج الأفق الحاضر بالأفق الماضي أي عبر اندماج الأفقين وهذا ما دعا إليه كادامر Gadamer , وياوس Jauss؛ لجعل فعل القراءة فعلاً ممكناً(ينظر: خضر, 1997: 133).

ويستمر ايليًا الحاوي في قراءة النص مستغلاً الدوال النفسية (عقدة النقص , وعقدة النسب) للكشف عن مكامن النص النفسية(ينظر: الحاوي, 1986: 366), ويظهر لنا عقدتين أساسيتين في سياق حديثه عن اللامية وهما " عقدة السواد ... وعقدة عدم الانتماء " (الحاوي, 1986: 368), ومن هنا كُشفت معاناة صاحب اللامية من منظوره عندما عبر عن تلك الصورة ب " السواد المجتث من الليل أنما هو رمز الوحدة واليأس, فهو أبن الليل وليس أبن النهار, ولقد ولجتْ إلى ضميره عقدة السواد, فعاد لا يطيق صحبة الأخرين, بل يتفرد في نفسه ويألف البراري القصيَّة والمفازات, ويساكن الوحوش ..... فضاعف ذلك من شعور الهوان والتراخي بين قبضة الحياة والعالم , وأحسَّ أنه فعلاً أبن السواد والظلام وأنهم هم أبناء الضوء والنهار" (الحاوي, 1986: 367)[i], أي قومه , ففي قول الشنفرى :(يعقوب, 1996: 58)

فقد حُمَّتِ الْحَاجَاتُ واللَّيلُ مُقْمِرٌ وشُدَّتْ لِطِيّاتٍ مَطَايَا وَأُرْحُلُ

يرى أن الهوس النفسي كان باعثاً قوياً للشنفرى ؛ ليكون من " الثوار الايجابيين والسلبيين في آن معاً , يرفض القدر الذي كتب له, ويأبى أن يكون من طبقة العبيد, الذين ارتضوا ذلهم وقنعوا به "(الحاوي, 1986: 368), هكذا كما لو كان وجود هذا الإباء في لاميته دليلاً قاطعاً على درجة الصبر التي بلغتها روحه؛ ولهذا كان الربط بين هذه التصورات وبين اللامية ربطاً شائعاً لدى ايليًا الحاوي, حيث اللامية انعكاس مباشر للصراع النفسي لديه (ينظر: الحاوي, 1986: 368)؛ فإن نظرته إلى اللامية كانت عن طريق سيكولوجية المبدع؛ وعدها نصاً يحمل تجربة المبدع, وعن طريق محاورته لهذه التجربة المتمظهرة في اللامية فإنه سيصل إلى الفهم وبالتالي معنى النص(ينظر: إسماعيل, 2002: ن), وقريب من هذا المنطلق يتبادر إلى الذهن قراءة الدكتور عز الدين إسماعيل للتجربة الشعرية, التي تُنتج عن طريق تجربة صعبة خاضها المبدع وتأثر بها تأثراً عميقاً, إذ يقول : "عندما تنتهب نفس الشاعر الآلام, يجد عوضاً عنها تلك اللذة التي يستمتع بها وهو في

نشوة الوحي, وفي هذه النشوة يكمن مرض الشاعر ودواءه, ولا بد أن يعي هذا أنه بسبب تلك الآلام كان الوحي, ومع الوحي كانت النشوة, أي أن المعاناة كانت السبيل إلى الوحي, أي الإبداع, وكان الإبداع وسيلة لإخضاع تلك الآلام والتلذذ بها"(إسماعيل, 1981: 21), فحديث ايليَّا الحاوي عن اللامية ومبدعها, وتعريفه للقارئ المعاصر عن قضية الصراع النفسي وعلاقته بالإبداع الشعري , ما هو إلا مساراً للوصول إلى حقيقية أكبر تكمن في نفسية المبدع.

ومعاناة الشنفرى التي كشفت عنها اللامية, من منظور ايليَّا الحاوي هي " نتيجة واضحة لأسباب نفسية وفنية بعيدة الغور كثيرة اللّبس والتحول والتقمص, وإذا اكتفينا بالمعنى الواضح فإنما نكتفي بالنتيجة الظاهرة, عن الأسباب الحقيقيَّة التي أدَّت اليه, ونكون بذلك قد ألمَّنا بالخط الأفقي الذي لا قيمة له في الدلالة على حقيقة التجربة الشعرية, إلا بقدر ما للرمز من قيمة في الدلالة على ما يختبئ وراءه من حقائق واسرار "(الحاوي, 1986: 14 – 15), ومن هنا قاده إحساس القمع النفسي والقهر؛ ليكشف لنا " ما لا يقوى على اكتشافه بنفسه وما لا يستطيع أن يدركه ويحلَّ فيه بيقينه الخاص؛ ذلك إن الانفعال النفسي عندما يعمق ويقوى يغدو قادراً على تخطِّي الحدود المرسومة لفهم الأشياء "(الحاوي, 1986: 45), وهكذا يبسط ايليَّا الحاوي أمام قارئة تلك الانفعالات والهواجس النفسية التي شملتها اللامية ,والتي أخذت في الاتساع شيئاً فشيئاً لدرجة أن تتحول اللامية في لحظة من لحظات التلقي لديه إلى صورة واقعية وشبه مكتملة عن حياة الشنفرى النفسية (ينظر: الحاوي, 1986: 45).

ومن جانب أخر حاول ايليَّا الحاوي أن يربط بين الهواجس النفسية الكامنة للشنفرى في خطاب اللامية الأدبي الذي أوقد نيران الثورة الداخلية لديه, وبين النزعة الإنسانية التي ظهرت بين العبيد في عهد الرومان, والتي ولَّدت ثورة سبارتاكوس(ينظر: سكيافوني, 2018: 10), التي وقفت بوجه النظام الاقطاعي والطبقي الأناني القائم عصرئذٍ (ينظر: فاست, 1980: 23, الحاوي, 1986: 368 – 369), ولكن ذلك لا يصرفه عن تأكيد حقيقة الثورة النفسية للشنفرى المنبثقة من تلك العقد النفسية وذلك الجرح السوداوي العميق, ومن تلك العقد والهواجس النفسية والصراعات الداخلية كانت تنثال عليه التجربة الشعرية في لاميته , على وفق طباع البداوة وصدقها وبراءة فطرتها وعنف تصويرها للواقع (ينظر: الحاوي, 1986: 369).

وانطلاقاً من عقدتي السواد والانتماء التي أشار إليها نمت نزعتان أساسيتان في شخصية البطل وهما" نزعة التمرد على النفس وعلى الآخرين وعلى الحياة , ونزعة الإبادة وشهوة الدمار والقتل وكانت كل نزعة تضاعف من الأخرى , تغذيها وتتغذى بها , النزعة الأولى كانت تمنحه القدرة على عدم الاستسلام , كانت تجعله هو البداية والنهاية , يفعل افعاله بفعله ويراغم بها الحتمية والعبودية ..... والنزعة الثانية ..... يتنفس بها عبر الغزوات "(الحاوي, 1986: 371).

إن هاتين النزعتين ما كانتا لتغيبا عن فكر إيليَّا الحاوي وهو قارئ البعد النفسي الأول, وأول من أعطى هذه اللامية أبعادها النفسية الكافية, فقد اكتشف ايليَّا الحاوي إن اللامية ضياء يشرق من عمق الظلام, وطريقاً يلج إلى القاع المظلم لمبدعها(ينظر: الحاوي, 1986: 370)؛ لأنها تشتمل على عدة مقومات فنية كانت كافية لعدَّها ظاهرة إنسانية مبكرة , فإلى جوار الظاهرة الإنسانية ثمة قدرة على التعبير عن هواجسه النفسية , وانطلاقاً من هذه الهواجس انطلق يكشف عما حوته اللامية من إمكانات تعبير مستمدة من صراعات الشنفرى النفسية, فهي, كما يكتب ايليَّا الحاوي " أعمق تعبيراً عن حقيقة النفس من النظريات والحقائق المجردة "(الحاوي, 1986: 14).

ومن هنا فأن البعد الذي يتم تنشيطه بفعل القراءة النفسية لنص اللامية يظهر إلى الواجهة, في حين تتوارى وتختفي كل الأبعاد التي لا تنشط تأويلياً , وإلى حد كبير كان فعل التلقي محكوماً بالأبعاد التي تُكشف في نص اللامية في أي لحظة من لحظات تلقيها النفسي (ينظر: سقال, والقزي, 2013: 9 – 11), وإذا كان التلقي الاستبعادي للامية قد نبذ اللامية ؛ فلأنه لم يرَ فيها إلا البعد الشعوبي والكذب والافتراء على المجتمع العربي , والذي كانت مزاعم القراء تضخمه وتأكده , وهو

ما ولّد لدى قراء هذا الجليل مثل ايليّا الحاوي رغبة شديدة تجاوز تلك الأبعاد التي وقف عندها قراء ذاك النمط من التلقي, حيث سيلحظ القارئ لدى هؤلاء القراء الحاحاً على ضرورة تجاوز البعد الشعوبي وهوس التأصيل , والاستعاضة عنه بالإلحاح على الأبعاد النفسية والاجتماعية والمضامين الإنسانية, وبهذه الأبعاد والمقومات يمكن الكشف عن الظواهر النفسية في اللامية, كما يمكن القول بصلاحية اللامية لتكون مسرحاً لهواجس ونوازع الشنفرى, ففي قراءته لقول الشنفرى: (يعقوب, 1996: 69 – 70).

وَلَيْلَةِ نَحْسٍ يَصْطَلِي الْقَوْسَ رَبُّهَا وَأَقْطُعَهُ اللاَّتِي بِهَا يَتَنَبَّلُ

دَعَسْتُ عَلَى غَطْشٍ وَبَغْشٍ وَصُحْبَتِي سُعَارٌ وَإِرْزِيزٌ وَوَجْرٌ وَأَفْكُلُ

فَأَيَّمْتُ نِسْوَانَاً وَأَيْتَمْتُ آلدَةً وَعُدْتُ كَمَا أَبدَأْتُ وَاللَّيل أليلُ

وَأَصْبحَ عَنْي بِالغُمَيْصَاءِ جَالِساً فَرِيْقَانِ مَسْؤُولٌ وَآخَرُ يسْأَلُ

فَقَالُوا لَقَدْ هَرَّتْ بِلَيْلٍ كِلاَبُنَا فَقُلْنَا أَذِئبٌ عَسَّ أَمْ عَسَّ فَرْعَلُ

فَلَمْ تَكُ إِلاَّ نَبْأَةٌ ثُمَّ هَوَّمَت فَقُلْنَا قَطَاةٌ رِيْعَ أَمْ رِيَعَ أجْدلُ

يرى بأن صورة البطل في اللامية تدنيه من أبطال مسرحيات البير كامو(ينظر: كامو, د ت: 7 – 8)؛ لأنه يصدر عن نوع من الشعور بالعبث أمام غباوة الحياة وظلمها, لكنه يرفض أن ينصاع ويذعن لها (ينظر:كامو, 9:1990– 13), وكذلك تدنيه من تضحيات بروميثيوس (ينظر: نيهارت, 1994: 95– 96), البطل الاسطوري الذي كان يدافع عن كرامة الإنسان وجدارته على الرغم من كونه مكبلاً بصعاب الحياة (ينظر: الحاوي, 1986: 378 – 379), إلا أن صورة البطل في اللامية من منظور الدكتور عفيف عبد الرحمن لم تقف عند هذا الحد , بل اقتحمت تلك الصعاب واذلتها , ثم أن نزعة بروميثيوس تتجه إلى الإنسان, ونزعة بطل اللامية تتجه إلى التفرد وترفض الحضارة والمجتمع, فهو الرافض والثائر المطلق, والإنسان في نظره هو إله نفسه وسيد قدره وسيد الوجود, يقيم منه في صراع أبدي , وفي ذلك الصراع تكمن جدارته ويحقق ذاته (ينظر: عبد الرحمن, 1985: 265, الحاوي, 1986: 378 – 379), وعلى هذا لم يكن غريباً أن يتحول الشنفرى في لاميته من مثال العبد الفقير الأسود إلى مثال إنساني كبير للمثقف الثائر والشاعر المتمرد كما يرى الحاوي(ينظر: الحاوي, 1986: 383), فهو بصبره واعتزازه بنفسه واستبساله في مناهضة الطبقية يعبر عن ثورة نفسية وتمرد عنيف, وتصوير درامي لقلب الأوضاع, والانتقال من مرحلة السكوت والقبول بالذل والهوان إلى مرحلة البوح والكشف عما يخالج النفس الإنسانية من الهموم والصراعات النفسية, فهو بدوره إنسان يتصارع مع إنسان ثانٍ داخله, الإنسان الأول يحمل وجهاً أعمى وأسود كوجه عطيل أو كوجه أوديب , يجوب به الفلوات , الإنسان الذي يريد أن يعرف أين موقعه من العالم, وأين حدود قدرته , يقوى ويضعف في آن , تحتله الهموم وتغرد له الطبيعة , ثمَّ تفترسه بجوفها الكريه , تطأه الحياة وتُخضعه أو يطأها ويخضعها , ووجهه الحالك السواد وشفتاه الكبيرتان, تمنعانه من التحرر أو الانتصار على عالمه البائس ؛ ليتداعى من الداخل وينتصر السواد فيه على البياض مثلما انتصرت عقدة النقص لعُطيل في مسرح شكسبير, والإنسان الثاني كان يحمل همومه مثل سيزيف(ينظر: نيهارت, 1994: 128– 129), عندما كان يحمل الصخرة إلى القمة ثمَّ تتدحرج وتتساقط إلى القاع(ينظر: كامو, د ت: 7 – 8), فبطل اللامية من ابطال المآسي, وهو الأنسان الذي يدب على صدر الكون والكون يعبث به ويضطهده, وهذا ما افضت إليه مقاربة ايليّا الحاوي(ينظر: الحاوي, 1986: 384).

تعد اللامية من هذا المنظور شكلاً أدبياً من نتاج الظروف النفسية التي أوجدتها العقد النفسية لمبدعها؛ لأنه يراها تمثّل التجربة الإنسانية العميقة والمريرة في آن واحد(ينظر: الحاوي, 1986: 383- 384), فهي وأن ارتكزت على حياة الصحراء, فأنها تستمد قيمتها الأدبية من التصوير البارع والرائع لنفسية الشنفرى, صاحب الصراع النفسي وممثّل الطبقة المعدمة والمنبوذة الذي يسعى بالصعلكة وانتهاز الفرص للحصول على مراده, ولا يبالي في سبيل ذلك أن يقتل غنياً أو يسرق تاجراً, وهذا الفهم لتجربة الشنفرى الذي أبداه إيليا الحاوي قريب مما يراه إنغاردن R.Ingarden, عندما رأى أن الفهم السديد لوحدات المعنى ليس كافياً لفهم العمل الأدبي وإنما لا بد أن يتجاوزه المرء إلى عمليه إسقاط قصدي للموضوعات القصدية التي تستنتجها من طبقة الوحدات السيمیانطيقة وهذا كي يحدث ما يسميه بالفهم الفعال(توفيق, 1992: 442), الذي يتجاوز مجرد التلقي والاستقبال للمعنى إلى فهم فاعلية المعنى, أي ينتقل القارئ من مرحلة الخبرة بالعمل الأدبي إلى التواصل مع العمل " فالقارئ الحقيقي هو الذي لا يقف عند فهمه المعاني المتضخمة داخل النص, بل هو الذي يحاول أن يعايش النص بوقائعه وأحداثه"(إسماعيل, 2002: 31), والتي يسميها إنغاردن R.Ingarden, بالقراءة الإيجابية, مقابل القراءة السلبية, حيث يقول: " وبالطبع فإن كل قراءة تعد نشاطاً يضطلع به القارئ بطريق واعية وليست مجرد خبرة أو استقبال لشيء ما"(توفيق, 1992: 442), فالقارئ الإيجابي من هذا المنظور لا يكتفي بمعرفة المعاني وإنما يسعى للاقتراب والتعرف على عالم النص الأدبي وبالتالي يسهم ويشارك في بنائه وإبداعه وإنتاجه بصورة مختلفة ومغايرة لأفق التوقع الذي إعتاد عليه جمهور القراء, وهذا ما حدث في قراءة إيليا الحاوي عندما حاول تفسير بنية اللامية عن طريق الدوال النفسية لها.

تبدو هذه المقاربة في سياق حديث ايليّا الحاوي محاولة توحي بأن اللامية ضرباً من المأساة العالمية , لكن بمَ تمتاز؟ ولماذا عدها كذلك؟ وما التشابه بينها وبين التجارب الإنسانية الأخرى؟ كل هذه الأسئلة لا نملك إجابة نهائية عنها, بيد أن الإشارة إلى وحدة المأساة الإنسانية وعدم الرضوخ والانقياد للظروف النفسية, هو ما يجعلها شبيهة بالتجارب الإنسانية العالمية(ينظر: الحاوي, 1986: 381), هل هذا الاستنتاج وارد ؟ أم أن ايليّا الحاوي نظر إلى البعد النفسي الذي كشفت عنه اللامية لصورة الشنفرى , فأعلن عن هذه المقاربة, وسواء أصح هذا أم ذاك فالمؤكد أن ايليّا الحاوي كان يدرك عمق التجربة الإنسانية داخل الخطاب الأدبي لنص اللامية ويبدو أنه قد استوحى هذه المقاربة من قول الشنفرى:
(يعقوب, 1996: 68).

طَرِيْدُ جِنَايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ عَقِيْرَتُهُ لأَيِّهَا حُمَّ أَوَّلُ

تَنَامُ إِذا مَا نَامَ يَقْظَى عُيُونُها حِثَاثاً إِلَى مَكْرُوهِهِ تَتَغَلْغَلُ

وَإِلفُ هُمُومٍ مَا تَزَالُ تَعُودُهُ عِيَاداً كَحُمَّى الرِّبعِ أَوْ هِيَ أَثْقَلُ

حينما عبر عنها بأنها " فلذة من الوجدانية الواقعية ومن الشعر الصافي والصورة الإبداعية المستمدة من أعماق البيئة الجاهلية ومن لجة الضمير ومن الخيال الحسي النفسي"(الحاوي, 1986: 381), وبأنها صدرت عن " دربة نفسية وفنية عميقة وتجربة قصية متعمقة بذاتها , وفيها تعارض الداخل والخارج والفرد والجموع والوحشة والألفة والحضارة والبداوة والإنسان والطبيعة والخير والشر والحرية والعبودية ونزعة المطلق والكلية في التصرف الإنساني مع القبيلة والانتماء"(الحاوي, 1986: 383), فكشفت اللامية دافع الشنفرى في "التخلي عن الناس والاعتزال في الفيافي والفلوات"(الحاوي, 1986: 370), كما يرى الحاوي , عندما عبر عن قول الشنفرى: (يعقوب, 1986, 59)

وَلِي دُوْنَكُمْ أَهْلُونَ سِيْدٌ عَمَلَّسٌ وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعُرْفَاءُ جيْأَلُ

بأنّه فسخُ للشراكة مع قومه والانتماء إلى نفسه, وهذا دافعٌ نفسيٌ ظاهرٌ ومعلن كشف عنه الشنفرى, وأما الدافع "المضمر أنه كان أبن الظلام, أبن السواد وللسواد طباعه"(الحاوي, 1986: 370), يتضح من ذلك أن ايليَّا الحاوي كشف عن مشكلة حقيقية وكبيرة أفصحت عنها اللامية تكمن في نفسية الشاعر الذي يتمنى الخلاص من قومه وقطع الصلة بينه وبينهم, إلا أن غاية ايليَّا الحاوي لم تكن تتمثل في أن يضع لهذه اللامية أصولاً كما أراد ذلك بعض النقاد والدراسين(ينظر: شريف, 1964: 21), بل كانت غايته أن يبحث عن تلك الهواجس النفسية التي ساعدت على إبداع اللامية عن طريق محاولته لمعانقة التجربة الشعرية في ضمير صاحبها والحلول فيها واكتشاف أبعادها النفسية كما يرى الدكتور عفيف عبد الرحمن(ينظر: عبد الرحمن, 1985: 265), وإن ما يهم ايليَّا الحاوي هو بالتحديد تلك الجوانب النفسية التي شكلت شخصية البطل في اللامية , وخلقت منه نموذجاً إنسانياً فريداً, ومن هنا انصبَّ اهتمامه, على خلاف القراء الآخرين(ينظر: عبد الرحمن, 1985: 265), على الأبعاد النفسية التي تمثل جوهر الخطاب الأدبي في اللامية , فتفرد الشنفرى وابتعاده عن قومه , يكشف عن جانب الصراع في مسلكه, وعن مدى تأثره بتلك العقد النفسية, وعن محاولته للهرب من بؤسه وواقعه المزري بالصعلكة .

واللامية في هذا الحال مهما وصلنا بها إلى نتيجة فإنها تحمل دائماً صفة الكمون والخفاء من منظور أنها مؤثرة , قابلة للإضاءة, حالما يبادر المتلقي لأي عملية تلقي لها, أو كما يقال هي بمثابة كائن حي في حالة سكون يستدعي التجدد ضمن حقل تأويلي مغاير أو مطور, تبعاً لمسائلة القراء هذا السكون بما يزعزع استقراره بغرض الإسهام في تطوير ما انتهى إليه الآخر عبر تفاعل الإجراءات السياقية التي تدفع باللامية من كونها قيمة معيارية إلى سياقات كشفية(ينظر: قيدوح, 1999: 137), وسيكون بمقدورنا أن نفهم كيف " تجتمع التأملات المستقلة للحياة في نص أدبي ساطع وفرد ومتميز تتكشف من خلاله أعقد طبائع العصر وأحداثه , وسنفهم خصائص الخيال الفني والحدس, وسيكون بمقدورنا أن نفهم على نحو أفضل كيف تخترق روح الشاعر الإبداعية توجهاته المتناقضة والمتناحرة أحياناً وتنتصر عليها مجسدة اندفاعه نحو غاية عظيمة أو فكرة سامية "(المرعي, 1994: 339)؛ لأن الذات تمثل " في القراءة النفسية أساس العمل التحليلي؛ ولأن العمل الأدبي انعكاس لما يعتلج في الداخل من صراعات ومن نكوص وصراعات"(سقال, والقزي, 2013, 27)؛ لذلك " لن يستطيع العمل اكتشاف حقيقة النوعية الخاصة به إلا بوجود القارئ الذي يستطيع المشاركة في المغامرة الروحية لفاعل العمل "(ينظر: هالين, و, شويرفيجن, و, أوتان, 1998: 18), وهذا ما يطلق عليه اندماج الآفاق, أو أفق التوقع(ينظر: إيزر, 2007: 55).

وهكذا لا يبقى مظهراً من مظاهر الجانب النفسي إلا وبالإمكان تلمسه في اللامية, ولا يبقى في اللامية مظهراً إلا وبالإمكان تلمسه في حياة الشنفرى, ومن يمرّ على تحليلات ايليَّا الحاوي وتطبيقاته سيلحظ أنه أُعجب باللامية؛ لكونها اعترافات أدبية عن صراع الإنسان مع نفسه(ينظر: الحاوي, 1986: 348).

لقد كان ايليَّا الحاوي, في سياق إثبات مدى أهمية العامل النفسي في عملية إبداع اللامية موفقاً جداً كما يرى الدكتور عفيف عبد الرحمن(ينظر: عبد الرحمن, 1985: 266)؛ إذ أن اختيار قصيدة لا تتوافر على معاناة نفسية واضحة ستخيب أمل القارئ الذي ينتظر من قراءة الحاوي أن تؤكد له مأساة تلك القصيدة , ومن هنا كان اختيار الحاوي منصباً على مجموعة من القصائد التي تربطها البواعث النفسية , ليكتشف القارئ أن إخضاع اللامية لقراءة نفسية قد أوصل الحاوي إلى نتيجة مؤداها , أن اللامية تكتسب قيمتها الإنسانية من جهة كونها ولَّيدة الصراعات النفسية الصادقة , وإنها من جهة أخرى تجربة إنسانية كبيرة (ينظر: عبد الرحمن, 1985: 266), وبقدر ما كانت السياقات النفسية عوناً للحاوي على أثبات كون اللامية اعترافات أدبية ناجحة, إلا أنها من جهة ثانية كانت تورطه وتدخله في مواضع أخرى, ما كان بالإمكان الفكاك منها إلا بضرب من ضروب التبرير والتشبيه, فحين كان يثبت احتواء اللامية على مقومات العقَّد النفسية لصورة البطل الأسطوري,

إلا أن البطل في خطاب اللامية كما يبدو لنا ليس بأسطورة كما ذهب ايليًا الحاوي , بل هو إنسان صهرته الصراعات النفسية والعرقية لينتفض على كلّ الظروف غير الإنسانية , فكانت وسيلته في الاحتجاج على ذلك , هي تلك الصرخات التي أودعها لاميته بكل ما تحمل من فضائل أخلاقية وإنسانية وهذا ما يراه أيضاً الدكتور عفيف عبد الرحمن (ينظر: عبد الرحمن, 1985: 268).

وتعميقاً لقراءة ايليًا الحاوي يرى علي مصطفى عشا أن قراءة يوسف اليوسف في كتابه (مقالات في الشعر الجاهلي) من أنضج المقاربات من حيث نفاذها إلى صميم النظرية النفسية في قراءة لامية العرب بملامح اجتماعية (ينظر: عشا, 2007: 79), إذْ إن اللامية تصدر من منظور يوسف اليوسف عن شعور عميق بالغربة وعن صراع خفي يحجب أزمة عميقة تفعل فعلها في نواة النفس نتيجة بتر العلاقة بينه وبين إطاره الاجتماعي(ينظر: اليوسف, 1985: 210 – 211), ومن هنا تأكد له " منذ البداية إلى أن التكامل بالآخر هو ما يحرم منه الشاعر , مما يفضي إلى خلل في الاستواء النفساني"(اليوسف, 1985, 210), ليس هذا فحسب , بل كشف عن طريق اللامية أنّ شخصية الشنفرى تحمل العقد المتناقضة , حيث قال: "يصر الشنفرى على تنصيب ذاته فوق الآخرين, وحين أنكرت عليه الجماعة هذه الرغبة فقد حققها في المجتمع الوهمي"(اليوسف, 1985: 214), وظهر ذلك في لاميته التي عدت ولادة طبيعية لعقد اللا انتماء والقهر والجوع والتي كانت سبباً في إنتاجها(ينظر: اليوسف, 1985: 225), ومن هذا المنطلق أمكن ليوسف اليوسف أن ينفذ إلى حقيقة شخصية الشنفرى التي كشفت عنه اللامية بكونه "رجراج وذو نفسية زئبقية متماوجة, إذ هو ينتقل بين الرضوخ والعناد , وهذا يعني أنه يعيش اصطراعاً بين رغبتين متعارضتين أو متنافرتين أولاهما تدفعه إلى الاستكانة والاستسلام , وثانيتهما تحرضه على النفور والحفاظ على الأنا ومرد هذه الزئبقية إلى بحثه عن الانتماء إلى مجتمع بشري , وإلى تعارض هذه الرغبة مع الواقع الموضوعي الذي لا يقدم لها اشباعاً ؛ لأن المجتمع البشري يرفض الشاعر بسبب جناياته" (اليوسف, 1985: 240).

وفي إطار البحث عن الأسس النفسية والاجتماعية للشاعر الجاهلي يرى يوسف اليوسف أن انسحاب الشنفرى من المجتمع ما هي إلا شكل من عدم التنازل عن الذات وإسراف في عشقها , إذ كلما ازدادت الأنا عشقاً لذاتها أصبحت أكثر ميلاً للعزلة عن الآخرين, كما يقرر التحليل النفسي المعاصر , ويقارن بين انسحاب الشنفرى إلى المنأى والنزعة الرومانسية التي تجعل من الشاعر يلجأ إلى الطبيعة بسبب عدم القدرة على التكيّف مع الواقع الاجتماعي(ينظر: اليوسف: 1985: 30 – 31).

ومن هنا لم يكن عسيراً على اليوسف أن يرهن اللامية بالصراع التحتاني العميق لنفسية الشنفرى(ينظر: اليوسف, 1985: 240)؛ وذلك ليتأتى له الكشف عن معاناة الشنفرى أو عن تأثيرها في اللامية أو عن قدرة الشنفرى لتوظيف تلك المعاناة في اللامية وبذلك يكون الشنفرى قد كشف عن حجم المعاناة التي كانت تختلجه وتفجعه, ولعل سرَّ خلودها كما يرى اليوسف " كامن في هذا التفجع الذي يجد ما يبرره"(اليوسف, 1985: 242).

إلا أنّ سبر أحوال النفس والتعرف على طباعها عن طريق القصيدة أمر متعذر كما يبدو لنا؛ لأن أثبات معاناة الشنفرى مطلب مبدئي في أطروحة اليوسف, والقراءة تهدف إلى قراءة القصيدة بعدّها حقيقة جديدة قد استقلت عن الافعال التي تقع في نفس الشاعر, فكيف تأتى ذلك ليوسف اليوسف ما لم تكن القراءة قد اسقطت على اللامية؟ ومن هنا كان لزاماً عليه أن يسلك الطريق ذاته الذي سلكه ايليًا الحاوي , أي اللجوء إلى قواعد المقاربات, والنظر فيما إذا كانت هذه المقاربات متوافرة في خطاب اللامية أم لا؛ وهذا ما دفع الباحث محمد الطويرقي للقول : بأن التحليل النفسي الذي كتبه اليوسف استحال " إلى وثيقة اعتراف تشهد على كثير من أخلاق الشاعر وأسرار حياته"(الطويرقي, 1406هـ , 1407هـ), وهذا ما يبدو لنا أيضاً, فكثرة المصطلحات من مثل (العقدة الفوقية, والعقدة الدونية, والتكيّف, والتكامل بالآخر, وعقدة النقص, والمكابرة, والبحث عن

البديل, والنهج الهروبي, وغيرها), (ينظر: اليوسف, 1985: 210 – 242), جعلتها بميدان علم النفس أعلق وبصاحب الشعر أوصف, فهو حديث عن صاحب اللامية أكثر من حديث عن اللامية نفسها.

ثانياً – القراءة الاجتماعية.

إن الانتقال من نمط تلق إلى أخر يتم عن طريق تغيير استراتيجيات القراءة وتجديد إجراءاتها, عن طريق تغيير مواقع التبئير في فعل القراءة , ويحدث هذا عندما ينحرف بصر القارئ من نقطة معينة من النص المقروء إلى أخرى(ينظر: إيزر, 2007: 59), وهذا ما وجدناه في التلقي الاجتماعي لنص اللامية؛ إذ بقيت الاستراتيجيات نفسها؛ إلا أن الاختلاف كان في تغيير نقطة التبئير(صالح, 2015: 34 – 36), فبينما كان الإلحاح على البواعث النفسية وعلاقتها بالإبداع الشعري من وجهة نظر القراء , أصبح التركيز على الأبعاد الاجتماعية في اللامية وفي المجتمع الذي ظهرت به.

وإذا كان الإلحاح على الجانب النفسي في اللامية قد قاد قراء التلقي النفسي إلى الوقوف على البواعث النفسية التي نشأت فيها اللامية, فإن قراء التلقي الاجتماعي يسعون إلى كشف علاقة اللامية بعالمها المحيط بها(ينظر: صالح, 2015: 35 – 36), ولهذا وجدتْ لامية العرب صداها في حقل السياقات الاجتماعية, ولا غرابة في ذلك, لأن اللامية لها القدرة على التجاوب مع القارئ والمجتمع وروح العصر, فالنص العظيم" هو الذي يلتقط , ببصيرة نافذة , روح عصره وضمير مجتمعه"(كاظم, 2003: 329).

ومع ذلك فإن هذه السياقات هي أحدى أدوات القارئ الصحيحة للكشف عن مضامين اللامية عن طريق تثبيت فعل القراءة على الأبعاد الاجتماعية فيها, إذ جعلت بعض القراءات من اللامية وسيطاً أدبياً يعمل على كشف تشكيل جديد ومختلف للامية من جهة , وللمجتمع الذي ظهرت فيه من جهة أخرى (ينظر: أدونيس, 1989: 88), فظهر قراء مثل أدونيس يسعى للكشف عن مضامين اجتماعية كامنة في خطاب اللامية الأدبي.

ويمكننا أن نلتمس مدى التغير في نقاط تبئير القراءة والتأويل حين نتتبع قراءة قارئ كبير بحجم أدونيس, في كتابه (كلام البدايات),(ينظر: أدونيس, 1989: 7), حيث تناول فيه اللامية مع مجموعة من القراءات لنصوص جاهلية جعل الرابط بينها القيم الإنسانية والاجتماعية, وكانت اللامية من أكثر النماذج الشعرية " التي تثير من المشكلات أكثرها تعقيداً وأكثرها شاعريةً في آن, مشكلات العلاقة بين الأنا والأخر , بين الذات والمجتمع, ومشكلات استشراف مجتمعٍ آخر ينهض على قيم مغايرة "(أدونيس, 1989: 87– 88).

وإذا كان تصفح مضامين اللامية بصورة سطحية سريعة قد فوّت على القراء السابقين الالتفات إلى البعد الاجتماعي في اللامية, فإن أدونيس قد ارتكز في قراءته على هذا البعد بالذات(ينظر: أدونيس, 1989: 87), فمن منظوره, لا يمكن استكشاف الجوانب المهمة التي سعى إلى اكتشافها الشنفرى عن طريق النموذج الإنساني إلا بعد قراءة شاملة لواقع المجتمع المعقد الذي عاش فيه الشنفرى وتأثّر فيه غاية التأثير(ينظر: أدونيس, 1989: 88), وبذلك نستطيع أن نفهم أبعاد النقد اللاذع الذي وجهه النشفرى إلى ذلك المجتمع , الذي – على الرغم من تماسكه قبلياً وصلة القرابة بين أفراده – تحول بعض رجاله وفتيانه إلى رافضين لعاداته وثقافته (ينظر: إسماعيل, 2015: 181)، ومن هنا جاءت ضرورة الإشارة إلى السياق الاجتماعي للظروف التي نشأت فيها اللامية من منظور أدونيس, ليس بهدف سرد وقائع تاريخية وأحوال اجتماعية, بل لتأكيد تصويرية اللامية من جهة, واظهار جانبها الاجتماعي عن طريق نقد وضع المجتمع في العصر الجاهلي من جهة ثانية (ينظر: أدونيس, 1989: 89).

تنطلق قراءة أدونيس لنص اللامية بكونها إعلان رسالة اجتماعية يكشف فيها الشنفرى عن خيبته من قومه وتطلعه نحو قوم آخرين(ينظر: أدونيس, 1989: 87), واللامية من هذا المنظور " مشروع بحث ومشروع انتظار : بحث عن قوم

آخرين, وانتظار لملاقاة ما كان يفتقده عند قومه"(أدونيس, 1989: 87), ومن هذا المنطلق يكشف أدونيس أجوبة لإشكالات وتساؤلات عدة مفادها, على ماذا قامت اللامية؟ وإلى ماذا تدعو؟ ولماذا ابتدأت بإعلان المفارقة بين الشاعر والمجتمع ؟(يعقوب, 1996: 58), ومن هنا كانت أطروحته معضدة بحشد من القراءات والتأويلات, التي رأى بأنها إجابات عن تلك الأسئلة المقترحة, فماذا يمكن القول بشأن هذه الإجابات؟.

كان أدونيس يصوب أجوبته على العلاقة بين الذات المبدعة والمجتمع, وهو ما جعله يقف على المحور الأساسي الذي بنيت لأجله اللامية, وهو محور الرفض لأنظمة المجتمع(ينظر: أدونيس, 1989: 87).

فلامية العرب من منظوره رسالة اجتماعية سعت إلى التمرد, ولكن ليس التمرد على المجتمع كمجتمع, وإنما التمرد على أنظمة المجتمع التي تلغي فرديته وتفرَّده, وتمنع حريته التي يتطلع إليها, لذلك خلقت عالماً جديداً مناقضاً لعالم الإنسان, وهو اختيار اللَّامعقول من جهة الأنظمة الاجتماعية؛ لذلك لا يمكن لبطل اللامية أن يشعر بالحرية ما لم يخرق هذا الأنظمة, التي تُعطي للفرد قانوناً قبل أن تعطِه حباً , وتُحرم قبل أن تُبيح , وهذا يقف حائلاً دون تفتح الفرد ونموه, ولهذا قلبت اللامية تلك المعادلة الاجتماعية , وبدلت الممنوع والمرفوض بالأصل, أي إن القانون تحول فيها إلى حرية , والمحال إلى ممكن , وأن هذا لم يتجسد في الأنظمة الاجتماعية , وإنما تجسد في الطبيعة , أي في قانون آخر , غير قانون المنع , هو قانون الحرية(ينظر: أدونيس, 1989: 88).

وعلى هذا, فاللامية من هذا المنظور, لا تنبت إلا في مجتمع مأزوم , دائم القلق , يعادي الحرية, وجذوره لم تنبت في أرض مستقرة , بل هي ولَّيدة المجتمع القلق والمتوتر , ومن ثمَّ سيكون بطلها مأزوماً قلقاً , أو كما يسميه غولدمان Goldmann إشكالياً(ينظر: غولدمان, 1993: 35), فهو يكشف حالة قهرية هزت وجوده الإنساني بسبب الأنظمة الاجتماعية السائدة , التي تربطها مجموعة من العادات والقيم تحت سلطة القبيلة , وتحت هذه الانظمة نُسي الفرد , ولهذا أعلن بطل اللامية أنه وحيد , يعيش في انفصال كامل عن المجتمع , وانه يستمد وجوده وقوته من رفضه البقاء تحت سلطة المجتمع السياسية والاقتصادية غير العادلة (ينظر: أدونيس, 1989: 92- 93).

وبهذا استطاع أدونيس, أن يتلمَّس الأبعاد العميقة لبطل اللامية, حيث اكتشف أن ثمة غايات اجتماعية إصلاحية تكمن وراء رفض بطل اللامية لأنظمة المجتمع السلطوية , فبطل اللامية أي الشنفرى موجود خارج الموجود , إثباتاً لذاته خارج الآخرين , وإثباتاً لرفضه واختلافه عن عالمهم المؤتلف (ينظر: أدونيس, 1989: 93), لكنه " لا يرفض الأخر بوصفه أخر , وإنما يرفضه من حيث هو قانون – سلطة قامعة, ومن حيث هو (متطول) ..... أي يرفض كلَّ ما يحدّ من الحرية , ويرفض عطاء الأخر , هكذا يخلق حوله – في القبيلة – فراغاً , ينهض فيه وحده , في استقلال كامل , وفي هذا الفراغ يرسم مثالاً, يرسمهُ بشكل غير مباشر – للإنسان والمجتمع – القبيلة , يؤسس مجتمع هويات ذاتية واقعية محسوسة "(أدونيس, 1989: 93 , يعقوب, 1996: 62), ولكن إلى أي حد كانت اللامية تعكس واقع المجتمع ؟ وهل كانت تمثيلاً حقيقياً لضمير مجتمعها ؟ وإذا كانت نموذجاً حقيقياً وصادقاً فما علاقتها بإصلاح المجتمع ؟ لم تكن الإجابة عسيرةً على أدونيس, فمن منظوره, أن اللامية قد قدمت صورة نموذجية للإنسان الذي يبحث عن الحرية في مجتمع تحكمه عادات وتقاليد سلطوية قاهرة , دفعت ببعض أفراده إلى الوقوف بوجه هذه القوانين السلطوية , عن طريق البحث عن عالم إنساني أخر أكثر إنسانية , وأكثر حرية , وإن جذر الإنسان ليس في القبيلة بوصفها وطناً , أو قانوناً , وإنما هو في الإنسان , بوصفه طبيعة وحرية(ينظر: أدونيس, 1989: 94), واللامية من هذا المنظور كما يرى أدونيس ثورة اجتماعية إصلاحية تدعو إلى الغاء النظام الاجتماعي من حيث هو قانون , أي من حيث هو أداة القمع ورموزه(ينظر: أدونيس, 1989: 95), وهذا ما أشار إليه يوسف اليوسف سابقاً بكون حركات التحرر في تراثنا العربي قد اكتسبت ميولها الاشتراكية من الخطاب الأدبي لحركة الصعاليك لا سيما اللامية ذات المنازع الاشتراكية (ينظر, اليوسف, 1985:40).

إلا إن الدكتورة سعدية حسين البرغثي, ترى بأن اللامية لم تكن تمثل ثورة اجتماعية وإصلاحية, وإنما كانت " ثورة فردية , بمآرب وغايت شخصية ضيقة, تحول القتل فيها إلى وسيلة وغاية وكان الثأر هو المحرك الأساس لها "(البرغثي, 2014: 220), ومن هذا المنظور لا يمكن عد اللامية تجربة اجتماعية تعبر عن ظروف اجتماعية قاهرة.

وفيما يبدو لنا إن قراءة الدكتورة سعدية حسين البرغوثي لنص اللامية, لم تكن صحيحة, بل ضيقة, إذا ما قُرنت بقراءة أدونيس, لأن الظروف التاريخية لمجتمع الصعاليك تتطلب تعبيراً فنياً معيناً يلائم تلك الظروف, فالقراءة الاجتماعية لنص اللامية تكشف عن مدى شمولية ذلك المجتمع وقهره لأفراده , وتبعاً لذلك غدت اللامية نصاً اجتماعياً يكشف لنا تلك الجوانب الغامضة من حياة المجتمع الجاهلي .

وبقدر ما قادت حالات التلقي السياقي التي أسهمت في مسار التلقي الاستكشافي , إلى منعطف قرائي خطير لامس البواعث النفسية والجوانب الاجتماعية لنص اللامية , فإنها كانت بمثابة عوامل أسهمت في تغير هذا التلقي ؛ إذ إن استيعاب هذه السياقات كان يستلزم تحولاً في نمط التلقي السائد , بحيث يكون نمط التلقي الجديد أقدر من سابقه على استيعاب اللامية وأبعادها(ينظر: كاظم, 2003: 393), وما إن يحصل هذا الاستيعاب حتى يكون في مستطاع القراء اكتشاف أبعاد جديدة فيها, أو إعادة تفسير أبعاد قديمة بما يتناسب مع التلقي الجديد , فبقدر ما يكون التلقي لنص اللامية فعلاً تراكمياً, فإنه لا يتقدَّم إلا بعد إسقاط بعض أو جزء من استراتيجيات التلقي السابق ومسلماته ونتائجه.

وهكذا كانت الالتفاتات الأخيرة للتلقي السياقي توشك على النهاية (ينظر: طيبي, 2012: 146 – 147), لأن أفق التلقي الخاص باللامية قد تعرض لما تعرضت له الساحة النقدية العربية من تأثير المناهج النقدية المتصاعدة منذ سبعينات القرن الماضي, حيث بدأنا نشهد توظيفاً متصاعداً للمناهج النقدية, مثل الفنية, والموضوعية(ينظر: طيبي, 2012: 147), وكما كان لتلك المناهج النقدية تأثيرٌ كبيرٌ في مختلف القراءات, كان لها كذلك أثر كبيرٌ في القراءات التي دارت حول اللامية في المرحلة ذاتها.

الخاتمة.

حاولنا في هذه الدراسة أن نقف على قراءات الدارسين العرب لنص اللامية, عن طريق تركيزهم على جانب معين بذاته : كالتركيز على الجانب النفسي والتعبيري في شخصية المبدع أو تركيزهم على الجوانب الاجتماعية التي كانت سبباً أساسياً لظهورها؛ إذ كشفت قراءاتهم عن الهواجس النفسية للشنفرى, والبواعث الاجتماعية والأيديولوجية وعلاقتها في إبداع اللامية؛ لتصبح بعد ذلك من منظورهم تجربة إنسانية فريدة من نوعها , تنبئ عن حال صاحبها, وعن الأحوال والظروف الاجتماعية والأيديولوجية التي أسهمت في إبداعها.

المصادر والمراجع.

❖ أدونيس, أدونيس, (1989), كلام البدايات, الطبعة الأولى, دار الآداب, لبنان.

❖ إسكاريب, روبير, (1999), سوسيولوجيا الأدب, تر, آمال أنطوان عرموني, الطبعة الثالثة, عويدات للنشر والتعريب, بيروت, لبنان.

- ❖ إسماعيل, بشار سعدي, (2015), شعر الصعاليك الجاهليين في الدراسات الأدبية والنقدية القديمة والحديثة, د, الطبعة الأولى, دار مجدلاوي للنشر والتوزيع, عمّان, الأردن.
- ❖ إسماعيل, سامي, (2002), جماليات التلقي, الطبعة الأولى, المجلس الأعلى للثقافة, القاهرة, مصر.
- ❖ إسماعيل, عز الدين, (1981), التفسير النفسي للأدب, الطبعة الرابعة, منشورات مكتبة غريب, بيروت, لبنان.
- ❖ إيزر, فولفغانغ, (2007), فعل القراءة – نظرية في الاستجابة الجمالية, تر, حميد لحمداني, الطبعة الأولى, مطبعة الأفق, فاس, المغرب.
- ❖ البرغوثي, سعدية حسين, (2014), مظاهر التمرد في الشعر الجاهلي – عنترة وطرفة والشنفرى أنموذجاً, (مجلة الثقافة والتنمية), مج 15 , ع 83 .
- ❖ توفيق, سعيد, (1992), الخبرة الجمالية – دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية, الطبعة الأولى, بيروت, لبنان.
- ❖ الحاوي, إيليّا, (1986), في النقد الأدبي, مقدمات جمالية عامة وقصائد محللة من العصر الجاهلي, الطبعة الخامسة, دار الكتاب اللبناني, بيروت, لبنان,ج1.
- ❖ حفني, عبد الحليم, (1987), شعر الصعاليك – منهجه وخصائصه, الطبعة الأولى, الهيئة البشرية العامة للكتاب, مصر.
- ❖ خضر, ناظم عودة, (1997), الأصول المعرفية لنظرية التلقي, الطبعة الأولى, دار الشروق للنشر والتوزيع, عمّان, الأردن.
- ❖ خليل, حلمي, (2000), العربية وعلم اللغة البنيوي – دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث, الطبعة الأولى, دار المعرفة الجامعية.
- ❖ زيدان, محمد مصطفى, (1979), معجم المصطلحات النفسية والتربوية, الطبعة الأولى, دار الشروق للنشر والتوزيع, جدة, السعودية.
- ❖ السامر, فيصل, (2000), ثورة الزنج, الطبعة الثانية, المدى للثقافة والنشر, دمشق, سوريا.
- ❖ سقال, ديزيره, والقزي, ديزيره, (2013), الإبداع الأدبي والتحليل النفسي – بين منهج الدراسة النفسية والتحليل السريري, الطبعة الأولى, دار كتابات, بيروت, لبنان.
- ❖ سكيافوني, ألدو, (2018), سبارتاكوس – السلاح والإنسان, تر, أماني حبشي, مراجعة, عز الدين عناية, الطبعة الثانية, منشورات كلمة, أبو ظبي.
- ❖ شرفي, عبد الكريم, من فلسفة التأويل إلى نظرية القراءة – دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة, الطبعة الأولى, منشورات الاختلاف, الجزائر.
- ❖ شريف, محمد بديع, (1964), لامية العرب – نشيد الصحراء لشاعر الأزد الشنفرى, الطبعة الأولى, مكتبة الحياة, بيروت, لبنان.
- ❖ شكسبير, وليم, (1991), مسرحية عُطيل, تر, خليل مطران, الطبعة الأولى, منشورات دار نظير عبود, بيروت, لبنان.
- ❖ شمس الدين, أسماء, (2009), جدلية الآنا والآخر في لامية العرب للشنفرى, (مجلة كلية الآداب), جامعة بنها , مصر , 2009 , مح 1 , ع 21.
- ❖ صالح, هويدا, (2015), الهامش الاجتماعي في الأدب – قراءة سوسيوثقافية, الطبعة الأولى, دار رؤية للنشر والتوزيع, القاهرة, مصر.
- ❖ طرابيشي, جورج, (1987), عقدة أوديب في الرواية العربية, الطبعة الثانية, دار الطليعة للطباعة والنشر, بيروت, لبنان.
- ❖ الطويرقي, محمد مشعل, (1406 هـ – 1407هـ), لامية العرب , دراسة تاريخية نقدية, (رسالة ماجستير), جامعة ام القرى, المملكة العربية السعودية.
- ❖ طيبي, فتيحة, (2012), تلقي النص الشعري العربي القديم, (مجلة الباحث), جامعة زيان عاشور , الجلفة , الجزائر, 2012 , ع 11.
- ❖ عبد الرحمن, عفيف, (1985), الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً, الطبعة الأولى, دار الفكر للنشر والتوزيع, عمّان, الأردن. مكتبة الحياة, بيروت, لبنان.
- ❖ عبدي, محمد ولد, "(2000), السياق والأنساق – في الثقافة الموريتانية – الشعر أنموذجاً – مقاربة نسقية, الطبعة الأولى, دار نينوى للدراسات والنشر
- ❖ عشا. على مصطفى, (2007), جوانب من المقاربة النفسية لنماذج من الشعر الجاهلي (مجلة أتحاد الجامعات العربية للآداب) , 2007 , مج 4 , ع 1.
- ❖ غولدمان, لوسيان, (1993), مقدمة إلى مشكلات علم اجتماع الرواية, تر , خيري دومة, (مجلة فصول), القاهرة, مج 12 , ع 2.

- ❖ فاست, هوارد, (1980), سبارتاكوس – ثورة العبيد, تر, أنوار المشري, الطبعة الأولى, دار الكرنك للنشر, القاهرة, ج1.
- ❖ قيدوح, عبد القادر, (1999), ألفة النص ومستويات التلقي, (مجلة علامات), المغرب , مج 9 , ع 34.
- ❖ كاظم, نادر, (2003), المقامات والتلقي– بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث, الطبعة الأولى, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت, لبنان.
- ❖ كامو, إلبير, (1990), الغريب وقصص أخرى, تر, عايدة مطرجي إدريس, الطبعة الرابعة, دار الآداب, بيروت, لبنان.
- ❖ كوين, جون, (1990), بناء لغة الشعر, تر, أحمد درويش, الطبعة الأولى, الهيئة العامة لقصور الثقافة, القاهرة, مصر.
- ❖ المرعي, فؤاد,(1994), في العلاقة بين المبدع والنص والمتلقي, (مجلة عالم الفكر), الكويت, مج 23 , ع 1 – 2.
- ❖ مفتاح, محمد, (1994), التلقي والتأويل – مقاربة نسقية, الطبعة الأولى, المركز الثقافي العربي, بيروت, لبنان.
- ❖ نيهارت, نيهارت, (1994), الآلهة الأبطال في اليونان القديمة, نيهارت, تر, د, هاشم حمادي, الطبعة الأولى, الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع, دمشق, سوريا.
- ❖ هالين, فيرناند, وشويرفيجن, فرانك, وأوتان, ميشيل, (1998), بحوث في القراءة والتلقي, تر, د, محمد خير البقاعي, الطبعة الأولى, مركز الأنماء الحضاري, حلب.
- ❖ ياوس, هانس روبرت, (2020), نحو جمالية للتلقي – تاريخ الأدب تحد لنظرية الأدب, تر, محمد مساعي, مراجعة, عز العرب الحكيم بنائي, الطبعة الثالثة, مركز الأبحاث السيميائية الثقافية, المغرب.
- ❖ يعقوب, إميل بديع, (1996), ديوان الشنفرى , الطبعة الثانية, دار الكتاب العربي, بيروت, لبنان.
- ❖ اليوسف, يوسف, (1985), مقالات في الشعر الجاهلي, الطبعة الرابعة, دار الحقائق, بيروت, لبنان.